

## عبد الله نديم

١٨٤٥ - ١٨٩٦



ظل الشعر في مصر بعد وفاة رفاعة رافع الطهطاوي  
خلوا من المعاني الوطنية، إلى أن تجددت في شعر عبد الله  
نديم.

هو خطي الثورة العرابية، وهو أيضاً شاعرها، انطبعت  
في خطبه وقصائده روح الوطنية المتدفقة، وروح الثورة.

ولد سنة ١٨٤٥ بالإسكندرية، وبدت عليه منذ صباه  
مخايل الذكاء اللامع، وظهرت مواهبه في الترسل في الكتابة  
والشعر والزجل، والقدرة الخطابية، مع خفة في الروح، وميل إلى  
الفكاهة، وجرأة وإقدام، واستخفاف بأحداث الزمان.

ولما ظهرت الثورة العرابية أوائل ١٨٨١، انضم إليها بطبعه، إذ كانت نفسه تتأجج وطنية  
وتنتطع إلى الحرية والمجد، وتجلت مواهبه الخطابية، فصار خطيب الثورة العرابية.

ومما يذكر عنه في صدد الحديث عن شعره الوطني أنه لما سافر الآلاي السوداني الذي  
كان يقوده الأميرالاي عبد العال حلمي أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط، في أوائل أكتوبر  
سنة ١٨٨١. كان سفره يوماً مشهوداً، فاحتشدت الجموع في محطة العاصمة لتحية الآلاي حين  
سفره، وكان من بين المودعين عرابي والبارودي وعبد الله نديم، فوقف النديم وسط هذا الجمع  
الحاشد وألقى خطبة حماسية فياضة، بدأها بقوله مخاطباً رجال الجيش:

"حماة البلاد وفرسانها!

"من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم  
إليه من الشرف وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات.

إلى أن قال: وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إليكم يرد الأمر وهو عظيم  
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى  
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه  
فردوا عنان الخيل نحو مخيم  
وشدوا له الأطراف من كل جهة  
إذا لم تكن سيفاً فكن أرض وطأة  
فإني بكم طول الزمان رحيم  
فمن أين يأتي للديار نعيم؟  
تأخر عنه صاحب وحميم  
تقلبه بين البيوت نسيم  
فمشدود أطراف الجهات قويم  
فليس لمغلول اليدين حريم

وختم خطبته بقوله: وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال (ما شهيد الأوطان!)، فنادى الجميع (رضينا بالموت في حفظ الأوطان!).

ولما شبت الحرب العرابية لازم النديم عرابي كفر الدوار ثم في التل الكبير، وكانت مجلته (الطائف)، تصدر في معسكر الجيش المصري.

وبعد أن وقعت الهزيمة، ظل مخلصاً للثورة في محنتها، فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة، وكان ممن أمرت الحكومة باعتقالهم، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه، وظل مختفياً عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة أعوام، وأعيى الحكومة أمره، وجعلت ألف جنيه لمن يرشد عنه، ولكنها لم تهتد إليه.

وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثناء اختفائه في قصيدة تفيض وطنية وإيماناً وفخراً وشجاعة، وهي من غرر قصائده. قال:

أتحسبنا إذا قلنا بلينا  
نعم للمجد نقتحم الدواهي  
تناوشنا فتقرنا خطوب  
سواء حرجها والسلام إننا  
بلينا أو يروم القلب لينا  
فيحسب خامل أنا دهي  
تري ليث العرين لها قرينا  
أناس قبل هدنتها هدينا

إلى أن قال:

إذا ما الدهر صافانا مرضنا  
لنا جلد على جلد يقينا  
ألفنا كل مكره تفدي  
فأعيا الخطب ما يلقاه منا  
فإن عدنا إلى خطب شفينا  
فإن زاد البلا زدنا يقينا  
له فرسانه بالراجليننا  
ولكننا صحاح ما عيننا

لسينا يا خطوب فقد عرفنا  
وقرى فوق عاتقنا وقولي:  
علينا للعلا دين وضعنا  
فهل يمسي رهين في سرور  
إذا ما المجد نادانا أجبنا  
يغنيننا فياهينا التغني  
ولسنا الساخطين إذا رزئنا  
فإننا في عداد الناس قوم  
إذا طاش الزمان بنا حلمنا

إلى أن قال:

سلوا عنا (منابرنا) فإننا  
لحكمتنا تقول إذا هذرتم  
سرى فينا من الأباء سر  
فإن عشنا منحنا سائيلنا

بأننا الصاب صاننا أو صائنا  
نزلت اليوم أعلى طور سينا  
عليه الروح لا الدنيا رهينا  
وهل تلقي بلا كدر مدينا؟  
فيظهر حين ينظرنا حنيننا  
عن الباكي وينسينا الحزيننا  
نعم يلقي القضا قلبا رزيننا  
بما يرضي الإله لنا رضينا  
ولكننا نهينا أن نهينا

تركنا في منصتها فطيننا  
إلا هبي بصيحتك فاصبحينا  
يسوق البر نحو المعوزينا  
وإن متنا نفحننا الزائرينا

وقال يصف إحاطة الجند بالمنزل الذي كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من شرهم:

أنسى يوم مصر والبلايا  
فكانت (١) الغوث في يوم كربه  
مدحنا فيه في إشراق شمس  
وهل أنسى هجوم الجند عمراً  
أحاطوا بي وسدوا كل باب  
وكان السطح مملوءاً بجند  
فأدركت الوحيد وكان صيداً  
وأرشدت النديم إلى مكان  
وأعمى الله عنا كل عين  
وصرنا فوق سطح فيه علو

تطاردني ولا ألقى معينا  
أخاف الشهم والحبر السميننا  
فلما جاء مغربة هجيننا!  
بلا علم وقد كنا فجيننا  
وصرنا بين أيدي الباحثينا  
وخلف البيت كم وضعوا كميننا  
قريباً من فخاخ الطالبينا  
رأه بعد حيرته مكيننا  
وكننا للعساكر ناظرينا  
يحطم هاويماً منه متينا

(١) الخطاب هنا وفي الأبيات التالية موجهة إلى الرسول ﷺ، والنديم شريف النسب.

فلم أرهب وثوبي من طمار  
ويوم الغيظ كانت لنا مجيرا  
فقد كنا بلا ستر يرانا  
وكم سرنا بلا خوف جهاراً  
وإني الآن في خطب عظيم  
أتانا مخبر عن قوم سوء  
وخاف الضر أحبابي جميعاً  
فجعل بالرحيل بلا توان  
فأدرك يا أبي نجلاً دهاه  
فما خفت المنون ولا الأعادي

ولم أنظر شمالاً أو يميناً  
بسطوته من البلوى حمينا  
أمام العين كل القاصدينا  
ركبنا الخيل أو جئنا السفينا  
أرى في طيه داء دفيناً  
أرادوا وصفاً للحاكمينا  
وقالوا لي بالوشاية قد رمينا  
ولا تخبر صديقاً أو خدينا  
من الأهوال ما يوهي البدينا  
نعم خفت انشراح الشامتينا

\*\*\*

فسرت الليل يصحبي ثبات  
ورافقتي خليل كان قبلا  
وأدركنا القطار بغير فوف  
وألقى الله ستر الحفظ فضلا  
وكان الخل منتظراً قدومي  
ونجي الله بعد اليأس عبداً

لخل نحو منزله دعينا  
يوافي حين كنا ظاهرينا  
وكننا بالثياب منكربنا  
فلم ترنا عيون الملبسينا  
بخيل أوصلتنا سالمينا  
يرى الرحمن خير المنقذينا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى في الروح والأسلوب من شعره في أبان الثورة. وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تتل منه، بل زادته قوة وحيوية، وصلابة وبلاغة، وأن الشدائد صقلت موهبه كما تصقل المعادن وتجلي جواهرها في لهب النار، فاحتفظ النديم في سنى المحنة بما حباه الله من إيمان صادق، وعزم ثابت، وصمود على الأيام، وكذلك الشدائد والمحن، يختلف أثرها في نفوس الناس، فبينما تبعث اليأس والجزع في النفوس الضعيفة، نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة ثباتاً وصبراً، وشجاعة وإيماناً، ومن هنا جاء شعر النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه في أوج انتصارها.

وفي الحق أن النديم هو الزعيم الوحيد بين الزعماء العربيين الذي استمر في جهاده ضد الإنجليز ونضاله عن مصر في عهد الاحتلال، وتلك لعمري ميزة كبرى جديدة بأن تحبط أسمه بهالة من المجد والخلود، وقد اهتدت الحكومة إلى مكانة سنة ١٨٩١ وقررت نفيه إلى خارج

القطر، وفي أوائل عهد الخديو عباس الثاني عفى عنه ورخص له بالعودة إلى مصر، فعاد إليها، وأنشأ مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ فتجلت فيها روحه الوطنية التي لم تضعف الهزيمة ولم تتل منها الشدائد، مما أحفظ عليه الإنجليز وصنائعهم، فتدخل اللورد كرومر، وأمر بإبعاد عن مصر ثانية، فاضطر إلى تعطيل صحيفته سنة ١٨٩٣، وودع قراءه وداعاً مؤثراً في آخر عدد صدر منها (في ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣) قال:

"ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب، والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظمة والجلال، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرًا في أعين الواقفين عند الظواهر، وعلى هذا فإني أودع إخوان قائلًا:

أودعكم والله يعلم أنني  
أحب لقاءكم والخالود إليكم  
وما عن قلبي كان الرحيل وإنما  
دواعي تبعدت فالسلام عليكم!

وانتهى به المطاف في منفاه إلى الأستانة حيث توفي سنة ١٨٩٦، وشيعت جنازته في احتفال مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء، ويتقدمهم السيد جمال الدين الأفغاني، ودفن هناك.

بالأمس كان غريباً في ديارهم  
واليوم صار غريب اللحد والكفن!

\*\*\*